بسم الله الرحمن الرحيم

التنصير القسري للموريسكيين فى مدينة بلنسية

في ضوء بعض الوثائق الجديدة.

د/ راوية عبدالحميد شافع.

أستاذ مساعد التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة حلوان.

المقدمة :-

عقب سقوط مدينة بلنسية Valencia (١)، فى يوم الجمعة ٢٧ صفر ٦٣٦ هـ، ٩ أكتوبر ١٢٣٨م، علي يد الملك خايمى الأول أو خايمى الفاتح Jaime 1, El Conquistador (٢). وكان أبو جميل زيان بن مردنيش (٣)، حاكم المدينة عندما ضاق عليه الحصار، قد أرسل وزيره وكاتبه ابن الآبار القضاعي البلنسي (٥٩٥ – ٦٥٨ هـ) – (١١٩٩ – ١٢٦٠ م)، لطلب النجدة من دولة الحفصيين فى بلاد المغرب، وفى تلك الزيارة صاغ ابن الآبار قصيدته المعروفة بالسينية يستصرخ فيها الحفصيين، لنجدة الأندلس بوجه عام وبلنسية، مدينته بوجه خاص، والتى جاء فيها :-

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا أن السبيل إلي مناجاتها درســا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وفى بلنسية منها وقرطبـــــة ما ينسف النفس أو ينزف النفسا

مدائن حلها الإشراك مبتسما جذلان وارتحل الإيمان مبتئســا (٤).

ولن نسترسل كثيرا فى عوامل وأسباب سقوط مدينة بلنسية، والتى كان يحكمها قبل السقوط مباشرة والي دولة الموحدين السيد أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن يوسف بن عبدالمؤمن (٥)، والذى كان ينازعه فى حكم المدينة، الأمير المردنيشي السابق الذكر أبو جميل زيان. ثم لم يلبث والي الموحدين أن غادر مدينة بلنسية وذلك مع إقتراب الملك الأراجوني خايمى الأول، ذاهبا إليه لاجئا حاملا معه أهله وولده وماله، وعقد معه معاهدة، تعهد له فيها بالتنازل عن بعض الحصون والأراضى الإسلامية، بل الأكثر من ذلك إرتداده عن الإسلام، واعتناقه للنصرانية بمحض إرادته لإرضاء الملك الأراجوني، واصطفافه للحرب إلى جانب ملك أراجون أيضا، علاوة على أنه ساعدهم فى الاستيلاء على مدينة بلنسية، التى كان هو أخر ولاتها المسلمين من قبل دولة الموحدين، بل وساعد الملك الأراجونى خايمى الأول فى هزيمة أمير بلنسية الجديد، أبو جميل زيان بن مردنيش، في موقعة أنيشة Batalla del Puig de Santa Maria (٦)، وهى الموقعة التى كانت السبب المباشر لبداية الإنهيار، وضرب الحصار على مدينة بلنسية، فى رمضان سنة ٦٣٥ هـ، إبريل ١٢٣٨ م،حيث أجبر أهلها فى النهاية إلى التسليم (٧).

والحقيقة أن الفترة التي أعقبت تهاوي وسقوط قواعد الأندلس الكبري، لم تحظ بالدراسة والتحليل اللازمين، وبخاصة الفترة الموريسكية (٨)، والتى تتكدس وثائقها فى مكتبات وجامعات المغرب والأندلس، وبين الفينة والأخرى تمدنا هذه الأماكن ببعض الوثائق التى تميط اللثام عن هذه الفترة المضطربة، والتى لم تلق العناية الازمة أيضا فى المصادر الإسلامية على وجه التحديد، وهى المصادر التى تمثل الجانب الأكبر من عناية المؤرخين فى الجانب العربي والإسلامي، ولكن مع تطور وسائل التواصل العلمي، يتم أحيانا نشر المزيد من الوثائق والقرارات والمحاضر، وأصبح من اليسير إلى حد ما الحصول علي البعض منها، وبخاصة ما يرتبط إرتباطا وثيقا بالفترة الموريسكية التى أعقبت سقوط حواضر الأندلس الكبري.

والجدير بالذكر هنا، أن معظم هذه الوثائق ركزت علي ما عرف تاريخيا بمراحل وطرق التنصير القسري، ومحاضر محاكم التحقيق أو التفتيش، وقد حظيت مدينة بلنسية باعتبارها من أهم وأكبر الحواضر الأندلسية بنصيب كبير من عناية هذه المواقع، وأيضا المؤرخين الغربيين، عن تلك الفترة التى تلت السقوط.

والحقيقة أن الأستاذ الدكتور / عبد الجليل التميمى، Abd El Jelil Temimi، المؤرخ التونسي الكبير، والذى ولد بتونس، بمدينة القيروان، (٢١ يوليو ١٩٣٨ م)، وهو يعد أحد أهم الرموز البارزة والرائدة ، فى الكتابات التاريخية ، وبصفة خاصة الكتابة عن العصرين الموريسكي والعثماني، بصفة عامة ، والذي أنشأ له مركزا لتلك الدراسات مازال يضطلع بدور كبير فى هذا المجال، والذي انصب النصيب الأكبر من كتاباته حول النواحي الاجتماعية، وبخاصة المرأة والعائلة الموريسكية، ومن أحدث الدراسات التى قامت بها مؤسسة هذا العالم الجليل، والتى تناولت فيها قضايا المرأة والعائلة الموريسكية، ما ذكره د/ التميمي فى مقدمة أحدث الدراسات المنشورة : أن شريحة النساء والأطفال قد غيبت تماما فى معظم الدراسات التاريخية. ولم تظهر إلا من خلال وثائق محاكم التفتيش La Inquisition التى انتبهت الى الدور الدقيق الذى تلعبه المرأة الموريسكية المسلمة ، فى تماسك المجتمع والأسرة ، ومقاومتها العنيدة والعنيفة لكل عمليات التذويب والمسخ والتعميد (٩).

وبالإضافة إلى ما ذكره الأستاذ الدكتور/ التميمي، فأن معظم الدراسات الموريسكية أيضا ركزت على أخر المعاقل الإسلامية فى الأندلس، مدينة غرناطة Granada، باعتبارها المدينة التى حظيت بنصيب كبير من الوثائق، ونكبتها كانت خاتمة نكبات المدن الأندلسية.

وهذا ما شجعنا على القيام ببحث حول التنصير القسري لمدينة بلنسية، فهى غير أنها من أهم الحواضر الأندلسية، فهى من المدن التى تفردت فى عملية التنصير بصورة كبيرة، فقد كانت

المقاومة فيها أشرس من معظم المدن الأخرى، وكان لها وضع خاص لدى محاكم التحقيق، نتيجة هذه المقاومة الشرسة من قبل محاكم التحقيق، فقد أجمع معظم من كتبوا عن هذه المدينة بعد السقوط، أن أهلها كانوا يميلون إلي الثورة والحرية، والتحرر من كل القيود التي فرضت عليهم.

أما عن الأعداد التى تم تنصيرها، فقد وصل نصيب مدينة بلنسية من أعداد الموريسكيين، حوالى ٣٣%، بصفة عامة من أعداد سكان المدن الأندلسية عامة، مما مثل عبء وأهمية كبيرة لتنصير هذه المدينة، علاوة علي العبء الذي وضع علي القائمين علي التنصير أنفسهم، نظرا للكثرة العددية بالمدينة، والتى قدرت بحوالي ٦٩,٧ %، في حين كان عدد المسيحيين ٧ ,٤٤ %. وقد مثل التفاوت الطبقي مشكلة كبيرة في هذه النسبة، حيث كان أغلب سكان المدينة الموسرين من النبلاء المسيحيين، فى حين كان انتشار المسلمين الموريسكيين كبيرا فى القري والضواحي، أي المناطق الفقيرة، مما مثل عبء على المسلمين الموريسكيين، ولم يستفد الموريسكيين من هذا الوضع الطبقى، إلا فى دفاع النبلاء عنهم ، نظرا للإستفادة الإقتصادية التي بجنونها من ورائهم (١٠).

وقبل أن نتتبع مراحل التنصير القسري للموريسكيين فى مدينة بلنسية، نشير إلي هذه الوثيقة المهمة والتى أوردها دون إدوارد سافدرا Don Eduardo Saavedra، في مجموعة الرسائل القشتالية، والتي توضح الفرق الشاسع فى تعامل العرب عقب الفتح الإسلامي للأندلس، وتعامل النصاري عقب سقوط الأندلس، بما فيه مدينة بلنسية موضوع البحث، وهو هنا يتحدث عن عبدالعزيز بن موسي بن نصير (١١)، وكيف تعامل مع أهل مدينة تدمير Tudmir، ويقول : '' باسم الله نعدكم أننا لن نجبر أحدا من النبلاء أو القواد علي التخلي عن منصبه، ولن نجردكم من ممتلكاتكم ونفوذكم، ولن نقتل أو نأسر أحدا، ولن نفرق بينكم وبين أبنائكم وزوجاتكم، ولن نضايق أحدا فى دينه ومعتقداته، ولن نحرق أو نهدم كنيسة، ولن نجتث نبتة زرع حرثها عبد من عبيدكم، ونتعهد بتطبيق هذا القانون والتشريع فى المدن السبعة التابعة لنفوذنا : أريولة، فلنتيلا، ألكانتي، مولا، بيغا سترو، أنايا، لورقة، شريطة ألا تتم حماية الفارين من معسكرنا، ولا يتم إخفاء المعلومات الرائجة فى معسكر أعدائنا، والتى تضر بمصلحتنا '' (١٢). وليس تحيزا ولكنها الحقيقة التاريخية، فلم يعرف تاريخنا الإسلامي موضوع التطهير العرقي، سواء على الدين أو الهوية.

عهد الملك خايمي الأول وتنصير بلنسية.

وقد مرت عملية التنصير القسري بمدينة بلنسية بمراحل طويلة، منذ السقوط حتي الطرد النهائي من المدينة، بدأت أول مراحلها مع الملك خايمي الأول، والذي سقطت المدينة علي يديه. والحقيقة أن الملك خايمي الأول، رغم أنه فاتح المدينة علي حد تعبير الكتابات المسيحية، التى أسبغت عليه لقب الفاتح، إلا أنه لم يكن له دور كبير فى تنصير المدينة، حيث شغل نفسه بالحرب والتوسع واسترداد المدن الإسلامية، أكثر من التركيز في عملية التنصير، ولم يكن هذا تراخيا منه، ولكن كانت له أولوياته، وهي استرداد المدن، ولهذا لم يتعمق كثيرا أو يشغل نفسه بمسألة التنصير بصورتها التي ستأتي لاحقا على يد لاحقيه، وربما لم تكن فكرة التنصير على عهده قد إختمرت فى رؤوس من قاموا بها بعده، وربما أيضا ساعده علي عدم التعمق في تلك المسألة، ما قدمه له كبار رجال المسلمين من الطاعة والولاء، عقب سقوط المدينة، بل وساعدوه فى الحرب ضد بعضهم البعض، ومنهم من تنصر بمحض إرادته، وفي االمقابل سمح لهم بحرية ممارسة شعائرهم ودينهم وعاداتهم، وذلك في مقابل الإخلاص والطاعة وعدم التمرد وزعزعة ما أطلقوا عليه بعد ذلك العصر، الوحدة الوطنية والقومية الإسبانية (١٣).

عهد الملك خايمي الثانى Jaime 11،(١٢٦٧ – ١٣٢٧ م).

والذى حمل لقب خايمي العادل Jaime 11, El Justo، ورغم هذا اللقب الذي حمله، فقد كانت بداية معاناة الموريسكيين فى مدينة بلنسية علي عهده، فكان أول من منع الآذان للصلاة، ومنع الصلاة جهرا، ومنع الصلاة فى الأماكن العامة، ومن كان يضبط متلبسا ومخالفا لتلك التعليمات يتعرض لأقصي العقوبات (١٤). فكان أول من أعطى الضوء الأخضر لمن بعده لاضطهاد وإنهاء الشعائر الإسلامية فى مدينة بلنسية.

عهد الملك الفونسو الحادي عشر ملك قشتالة. Al Fonso X1 Of Castile، (١٣٢٥ – ١٣٥٠ م).

والذى ولد في مدينة شلمنقة ،(Simancas) ، فى أغسطس ١٣١١م، ومات في جبل طارق Gibraltar، سنة ١٣٥٠ م، وكان قد أخذ علي عاتقه استعادة هذه المنطقة من المسلمين، أي منطقة جبل طارق، فيما عرف بحرب الإسترداد Guerra de Redencion، أو La Reconquista، أما عن دوره فى تنصير الموريسكيين فى مدينة بلنسية، فقد أصدر قرارا في سنة ١٣٣١ م، يقضي بطرد المدجنيين La Mudejares، وهم المسلمين الذين عاشوا في ظل الحكم المسيحي بعد سقوط مدنهم، وقد عجت مدينة بلنسية بأكبر طائفة من هؤلاء المدجنين.

وقد تم صدور هذا القرار، بعد أن اتهمهم بتقديم التعاون والدعم للقراصنة المسلمين علي شواطيء مدينة بلنسية (١٥).

عهد الملك دون بيدرو الرابع دي أراجون، Don Pedro de Aragon، (١٣٣٦ – ١٣٨٧ م).

أما فى عهد الملك بيدرو الرابع Rey Don Pedro 1V, de Aragon، فقد بدأت عملية التنصير فى مدينة بلنسية، بصورتها الأكثر عنفا، واتخذ هذا الملك طريقة منظمة للتنصير القسري، حيث أسند هذه المهمة لأول مرة إلي كبار القساوسة والرهبان، المختارون بعناية، ممن يجيدون التحدث باللغة العربية، بل الأكثر من ذلك عمل بنفسه علي نشر اللغة العربية في المعابد والكنائس بمدينة بلنسية، كي يسهل علي الموريسكيين تعريفهم بدينهم الكاثوليكي الجديد بلغتهم التى يجيدونها (١٦). والحقيقة أن تلك الحيلة الجديدة، كان هذا الملك أول من لجأ لها كي يقطع علي الموريسكيين خط الرجعة والإرتداد بعد أن عمل علي توصيل تعاليم المسيحية الكاثوليكية لهم، باللغة التي يفهمونها ومازالوا يتمسكون بها.

عهد الملك فرناندو الثاني، ملك أراجون Ferrnando11, de Aragon، (١٤٧٩ – ١٥١٦ م). والملكة ايزابيلا الأولى، ملكة قشتالة Isabel 1 La Catolica,(١٤٧٩ – ١٥٠٤ م).

ومع اعتلاء هذين الملكين سدة الحكم فى إسبانيا ممثلة فى مملكتى أراجون وقشتالة، وتوحيد واندماج المملكتين تحت تاجيهما، تبدأ المأساة الحقيقية للتنصير القسري، وقد بدأت في مدينة بلنسية وغيرها من المدن الأندلسية، مع سقوط أخر المعاقل الإسلامية فى الأندلس، مدينة غرناطة سنة ٨٩٧ هـ – ١٤٩٢ م، حيث بدأ الملكان الكاثوليكيان، فرناندو الثاني، وايزابيلا الأولى (١٧)، سيطرتهما علي كامل التراب الإسباني كما كان يطلق علي حركة الإسترداد فى تلك الفترة العصيبة علي المسلمين، ورغم عقد المعاهدات من قبل أخر ملوك غرناطة، أصبحت مجرد حبرا علي ورق، لم تفعل أي من هذه البنود التي تضمن حقوق هذه الأمة الأبية التي وجدت نفسها في يوم وليلة، كالأيتام علي مآدب اللئام (١٨).

وفى عهدهما بدأت الصورة تتضح بشكل كامل، حيث أفصحا عن نيتهما باجتثاث الإسلام والمسلمين من كافة المدن الأندلسية، التي اصبحت مستباحة، واستضعفوا المسلمين، وبدأت حقبة جديدة في حياة الموريسكيين ، امتدت لأكثر من عشرين عاما، يرزحون تحت وطأة الدولة الجديدة، التى عملت على تنصيرهم قسريا دون هوادة، أو مراعاة لتمسك هؤلاء المنكوبين بدينهم

وحضارتهم وهويتهم وعاداتهم، ورغم ما أبداه هؤلاء الموريسكيين، من هوادة ولين في محاولة منهم لمهادنة أسيادهم الجدد، لم تزدهم هذه الإستكانة إلا تعنتا وصلفا، وهناك شهادة مهمة عن هذا النكث بالعهود للمؤرخ القشتالي / برسكوت ثوريتا Prescott Zurita، حول أخلاق الملك فرناندو الثاني، يقول فيها :- لقد نكث فرناندو بكل العهود والمواثيق، وغدر حتي بأقرب المقربين له، وكان كذوبا لا يسعى إلا لتحقيق مصالحه الشخصية، وقد شهد له بذميم الخصال معظم المؤرخين الذين عاصروه (١٩).

ولسنا هنا في معرض الحديث باستفاضة أو تقييم لشخصية الملك فرناند الثاني أو الملكة ايزابيلا الأولي، ولكن فقط لتوضيح مدي شدة الوطأة التي رزح تحتها الموريسكيين في كل المدن الأندلسية بما فيها بالطبع مدينة بلنسية، والتي ضمها الملكان الكاثوليكيان إلي تاجيهما وتحت سيطرتهما. ونضيف أيضا شهادة أخري في حق الملك فرناندو الثاني، من أحد أهم معاصريه، وهو المفكر والفيلسوف الإيطالي مكيافللي Niccolo Machiavelli، (١٤٦٩ – ١٥٢٧ م)، وهو صاحب الكتاب الأشهر (الأمير)، وهو بالإيطالية De Principatibus، والذي قال عنه فى هذا الكتاب :- ‘‘ لقد اتخذ من الدين زريعة لتحقيق مشاريعه الخاصة ، ووظف الدين لتطهير مملكة غرناطة من المسلمين، كل هذا تحت ستار من التقوى وحماية القومية الإسبانية، والتي لم يسلم منها حتي الإيطاليين والفرنسيين، بمهاجمته لهم ’’ (٢٠).

أما ما يخص مدينة بلنسية في عهد الملكين الكاثوليكيين، فقد كان تعيين الراهب المتعصب فرانسسكو خيمينيث دى سيسينيروس, Francisco Jimenez de Cisneros (١٤٣٦ – ١٥١٧ م)، علي رأس الكنيسة الكاثوليكية بمدينة طليطلة Toledo، سنة ١٤٩٥ م (٢١). كان بداية المعاناة لكل الموريسكيين في الأندلس بصفة عامة، والموريسكيون في بلنسية بصفة خاصة، لم سبق أن وضحناه من ميل أهل مدينة بلنسية للثورة علي كل القيود التي وضعت لتنصيرهم، وهو ما عمل علي تطبيق هذا الرجل عملية التنصير القسري بكل الشدة والغلاظة.

وقد مات فرناندو وهو يوصي أبناؤه بتعقب كل أثر للمسلمين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، كما كان يحلو لهم أن يطلقوا هذا اللقب علي الموريسكيين، وأمرهم بالقضاء عليهم علي كامل التراب الإسباني، فهم علي حد تعبيره ــ لا يثق بهم ــ وكانوا موضع شك دائم لديه، وإنهم وإن بدوا نصاري في مظهرهم، إلا أنهم ما زالوا مسلمين في جوهرهم، يلتمسون أي فرصة للخلوة وممارسة عاداتهم وطقوسهم واستعمال لغتهم، ورغم ما بذله هذا الرجل وغيره من ملوك إسبانيا لتنصير هؤلاء المتمردين من وجهة نظرهم، استعصي عليهم تحقيق هذا الحلم علي أرض الواقع.

وقد إمتلأ الأرشيف العام بمدينة شلمنقة (Simancas) بالقرارات الملكية التي تعود إلي عصر الملكين الكاثوليكيين، والتي تتمحور معظمها حول عملية التنصير القسري، ومنها الأمر الملكي رقم ١٥١٠، والذي يظهر ثبات وتماسك الموريسكيين أمام هذه الهجمات الشرسة عليهم ، ومما جاء في هذا القرار الملكي، '' إن المسألة الموريسكية قد ظهرت كرد فعل لعمليات التنصير القسري بلا هوادة، وأن المسلمين الذين أطلقوا عليهم لقب المدجنيين قبل أن يطلق عليهم لقب الموريسكيين، قد قبلوا بالتنصير القسري، إما حفاظا علي أرواحهم، وأرواح ذويهم، وإما حفاظا علي ممتلكاتهم (٢٢). وقد كانت الكنيسة ممثلة في مجلس الأساقفة والمنوط بهم القيام بهذه المهمة، قد اتخذت قرارا باطلاق لقب النصارى الجدد علي الموريسكيين، وذلك كي يكون لهم وضعهم الخاص من حيث المزايا التي يمكن أن تقدم لهم، أو من حيث العقاب الذي يمكن أن يقع عليهم، في حالة عدم الانصياع لم يطلب منهم.

عهد الملك شارل الخامس، أو كارلوس الخامس، أو شارلكان، Carlos V، (١٥١٩ – ١٥٥٦ م).

أما المعاناة الحقيقية للموريسكيين البلنسيين، فقد بدأ في عهد الملك شارل الخامس، أو كارلوس الخامس، والذي حمل فيما بعد لقب شارلكان (٢٣)، والذى حكم مدة طويلة، تقارب ال٣٧ عاما، وبدأت المعاناة بصدور الأمر الملكي، بتاريخ الثاني عشر من مارس سنة ١٥٢٤ م، بتنصير جماعي لكل الموريسكيين في إسبانيا، ومن يرفض هذا القرار منهم عليه ترك البلاد، خلال المدة التي حددها القرار، أو يعرض نفسه لأن يصبح عبدا مدي الحياة، وبموجب هذا القرار الجائر تم تحويل جميع المساجد في كل إسبانيا إلي كنائس.

وكان أول وأخطر ما جاء في هذا القرار الجماعي، علاوة علي التنصير القسري، التهديد بالاستعباد الجماعي لمن يرفض هذا التنصير، وهو ما دفع الموريسكيون في الأندلس، لرفع شكواهم ومظالمهم إلي الإمبراطور الذي أمر بالتحقيق، ورغم أن القرار صادر منه وبموافقته، انتهي التحقيق إلي الموافقة على تنصير الموريسكيين، لأنهم اختاروا من البداية الدخول في المسيحية الكاثوليكية، ولم يراع الملك أو المحققون أنهم أجبروا هؤلاء الموريسكيين باعتناق المسيحية الكاثوليكية، وأن من إعتنقها من الموريسكيين، كان إما خوفا من الأسوء، أو طمعا في العودة إلى معتقدهم الإسلامي مرة أخري عندما تهدأ الأحوال، وعلي ذلك يعلق المؤرخ المسيحي الفرنسي / جوزيف كوندي Josef Conde، قائلا :- '' وهكذا أعتبر التنصير الذي فرضه القوي علي الضعيف، والغالب على المغلوب، والسيد على العبد، لا يمكن من وافق به أن يرتد عنه '' (٢٤).

ويذكر الحبر والمؤرخ الإسباني، مؤرخ ديوان التحقيق، دون ليورانتى Don Liorente أن مدينة بلنسية هي أول من تحرك في المدن الأندلسية معارضة هذا القرار، حيث كان لهذه المدينة وضع خاص بين المدن الأندلسية، وبخاصة بعد سقوط كامل المدن، فقد تفردت بضم أعداد كبيرة من المسلمين الموريسكيين، بلغ علي أقرب التقديرات حوالي سبعة وعشرين ألف أسرة (٢٥)، وهو عدد ضخم بالمقارنة بالمدن الأندلسية الأخري حينها، وذلك لإسباب عديدة أهمها علي الإطلاق موقع المدينة المتميز على الساحل الشرقي، والذي يسهل الخروج بيسر من إسبانيا، دون غيرها من المدن الإسبانية، علاوة علي الوضع الإقتصادي الجيد، والمعاملة الطيبة إلي حد ما من جانب الأسياد الجدد، مقارنة بالمدن الأخري، فلم يتسم سكان مدينة بلنسية بالاستكانة والهدوء والقبول بسياسة الأمر الواقع، كمعظم المدن الأندلسية، منذ العصر الإسلامي، بل دائما ما كانت بلنسية تقف في مقدمة صفوف المدن الثائرة، ضد أي ظلم أو جور، سواء في العصر الإسلامي أو العصر الموريسكي.

ويذكر د/ Henry Charles Lea، أن موقع مدينة بلنسية كمدينة ساحلية، تقع على الشاطيء الغربى للأندلس على البحر المتوسط، يسر لها الاتصال بمسلمي المغرب، دون معظم المدن الأندلسية، وكانوا دائما ما يطلبون ويحصلون على الدعم والإمدادات من المغرب، مما وضعها من أولى أولويات الحكومات الإسبانية المتعاقبة، وعندما ثاروا على قرار الملك شارلكان ، وضد سياسة التنصير القسري الذى فرض على كل المدن الإسبانية، أظهر البلنسيون مقاومة شديدة، ولجأت جموعهم إلى ضاحية تسمي بني الوزير Benaguacil، وهنا تعاملت معهم السلطة بوحشية كبيرة، حيث أرسلت إليهم قوة كبيرة مزودة بالمدافع، مما اضطرهم إلى التسليم وطلب الأمان، فأرسل اليهم الإمبراطور شارلكان صك الأمان، بشرط أن يخضعوا للتنصير القسري، وتم تعديل عقوبة العبودية، إلى دفع غرامات مالية كبيرة (٢٦).

والحقيقة أن تعديل هذا الشرط بالإعفاء من الرق، لم تحظ به إلا مدينة بلنسية، نظرا لوضعها الخاص، وبراعة العنصر الموريسكي فى هذه المدينة فى كافة المجالات الإقتصادية، من الزراعة إلى التجارة إلى الصناعات والحرف المختلفة، مما كا سينتج عنه هزة إقتصادية قوية، وهو ما حدث بالفعل بعد قرار الطرد الأخير، كما سنرى لاحقا.

وهكذا استطاعت الحكومة الإسبانية إخماد جذوة الثورة الأولى فى بلنسية، وتم تنصيرهم رغما عنهم، مع نهايات عام ١٥٢٦ م، ووجدوا أنه لا طريق إلا محاولة كسب بعض الامتيازات التى يمكن أن تمنحها لهم السلطة الحاكمة، مقابل الاستكانة وعدم العودة إلى الثورة مرة أخرى والقبول بالتنصير القسري، فأرسلوا وفدا منهم إلى البلاط الملكي للتفاوض، ويعرضون رغبتهم

الدخول في المسيحية الكاثوليكية، مقابل تخفيف بعض الأعباء عنهم، وتحقيق بعض المطالب، ومنها، أن لا يحاكمهم أو يطاردهم ديوان التحقيق لمدة أربعين سنة، وأن يأمنوا على أنفسهم وأموالهم، وخلال هذه المدة، ومن حقهم الاحتفاظ ببعض من عاداتهم، كملابسهم القومية ولغتهم العربية، وأن يتم الزواج والميراث بينهم طبقا لتقاليدهم الموروثة، وأن يتم حصول الفقهاء منهم علي رواتب من دخل أراضيهم التى اوقفوها لأعمال الخير، وأن يذهب جزء من ريع هذه الأراضى لبناء كنائس جديدة لهم، أو أن تخفض لهم الضرائب ويتمكنوا أيضا من حمل السلاح (٢٧).

والحقيقة استوقفتنى كثيرا عبارة شرط الفقهاء الحصول علي رواتبهم من أراضيهم التى أوقفوها لأعمال الخير، وهو ما يدل على اصرارهم على تنقية وتطهير نفقاتهم من حر مالهم، وبحيث لا تكون من مصادر غير معلومة فى ظل الدولة الجديدة، وهو ما يؤكد عقد النية والعزم على مسايرة الوضع الراهن، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا، وهو ما أكدته لاحقا جميع الوثائق التى صدرت عن محاكم التفتيش، فى عدم انصياع أهل بلنسية على وجه التحديد لتلك الأوامر الجائرة بل كان مجرد كسبا للوقت إلى حين.

وقد استجاب الإمبراطور شارلكان إلى بعض من هذه المطالب، ولكنهم فشلوا فى أهم شرط وهو مد المهلة، وأن لا يحاكمهم أو يطاردهم ديوان التحقيق لمدة أربعين سنة، ولم يتم الموافقة لهم إلا على عشر سنوات فقط، وسمح لهم ببعض الأمور الشكلية فقط، منها الاحتفاظ بملابسهم القومية ولغتهم العربية وعاداتهم فى الزواج وتخفيف بعض الضرائب عليهم (٢٨). وهى المنح التى لم ترق إلى تطلعاتهم فى مقابل التنازل الكبير الذى قدموه، من التخلى عن دينهم وهو أثمن ما يملكون، وهويتهم واسلوب حياتهم الذى اعتادوا عليه قرونا.

والطريف هنا، أن مدينة بلنسية كانت السباقة إلى تعليم المدن الأندلسية الأخرى طرق المناورة والمساومة، مع محاكم التفتيش، بغية الحصول على أى امتيازات من السلطة الحاكمة فى ظل هذه الأحداث المؤلمة، والتضييق عليهم فى كل مناحي حياتهم، فقد حذا الموريسكيون فى مدينة غرناطة نهج إخوانهم البلنسيين فى محاولة منهم لنيل بعض الإمتيازات، فانتهزوا فرصة زيارة الإمبراطور شارلكان لمدينتهم سنة ١٥٢٦ م، وقدموا اليه مجموعة من مطالبهم، وارسلوا اليه وفدا يضم ثلاثة من كبارهم، والذى يمتد نسبهم إلى أمراء غرناطة من بنى نصر، واوضحوا فى شكواهم ما يتعرضون له من ظلم ومطاردة وبخاصة من القساوسة ومحاكم التحقيق، فأعطاهم الإمبراطور نفس الامتيازات التى أعطاها لأهل مدينة بلنسية، وهى الثياب القومية واللغة والحمامات، فى مقابل التنازل عن عاداتهم فى إقامة الحفلات وعدم التسمى بالأسماء العربية،

ثم ما لبث أن ألغى هذه الامتيازات، ولم يجد الموريسكيون أمامهم إلا رشوة الإمبراطور، المستعد لتقبل هذه الرشى، وجمعوا له مبالغ كبيرة تحت مسمى الهدية، وذلك فى مقابل أن يسمح لهم فقط بارتداء ملابسهم القومية، وأن يتجاوز ويعفوا عنهم عندما تغلبهم هويتهم الدينية، ويرتدوا عن المسيحية (٢٩).

ونرى من خلال هذه النصوص أن التساهل مع أهل بلنسية، كان أكثر مرونة، وامتيازاتهم كانت أكبر وأكثر بالقياس للمدن الأخرى، بما فيها غرناطة، لم سبق أن وضحناه من قوة عزيمة وشكيمة أهل بلنسية، بل وحملهم السلاح فى وجه الدولة، مما جعلها تحاول التساهل معهم الى حد ما.

والحقيقة أن الملك شارلكان لم يتساهل مع أهل مدينة بلنسية حبا فيهم، أو حتى خوفا منهم، بل حفاظا عليهم، لم لهم من مهارات خاصة، وبخاصة الصناع والزراع، والذين أصبح معظمهم بين يوم وليلة تحت إمرة كبار النبلاء، مما سهل للكثير منهم، وبأذن من هؤلاء النبلاء الذين يحافظون على ممتلكاتهم الاقتصادية، حيث سمحوا لهم بحرية ممارسة شعائرهم الدينية وعاداتهم الاجتماعية، وهو ما إصطدم مع مصالح الدولة الجديدة من وجهة نظر محاكم التحقيق وقساوستها الغلاظ، وهو ما أشعل مشاعر الكراهية ضد المسلمين بمدينة بلنسية وضواحيها، ومع ازدياد السخط عليهم واشتداد الوطأة من قبل السلطة ومحاكم التحقيق ، حملوا السلاح، والعجيب هنا أن السبب المباشر لحملهم السلاح لم يكن لحماية أنفسهم فى المقام الأول، بل كان لحماية من يحمونهم، أى أسيادهم الجدد النبلاء المسيحيين، فقط لأنهم كانوا يوفرون لهم الحماية ويمكنونهم من ممارسة شعائرهم الدينية، رغم ما يحصلون عليه من مبالغ كبيرة مقابل هذه الحماية، وهو ما لم تتفهمه أو تستوعبه محاكم التحقيق أو السلطة، وظن كلاهما، أن الموريسكيين يتعنتون فقط، فى الانصياع تحت لواء الدولة الجديدة، ويحاولون عرقلة جهودها فى التوحيد.

وحول هذا الجانب الدينى المتجذر فى نفوس الموريسكيين، تتحدث احدى الوثائق المحفوظة بالمكتبة الجامعية بمدينة بلنسية، وتقول: ‘‘ لقد ظل الجانب الدينى متأججا داخل نفوسهم، ورغم تنصيرهم ودخولهم فى الدين الجديد، لم يتخلوا يوما عن ممارسة شعائر دينهم الإسلامي خفية، وكلما سنحت لهم الفرصة ‘‘، وكذلك تشير الوثيقة إلى دعمهم بكل ما يستطيعون من قوة للقراصنة الأتراك والمغاربة، بالقرب من شواطىء مدينة بلنسية، الأمر الذى أثار حفيظة القائمين على تنصيرهم، وأوعزوا للملك شارلكان، باتخاذ تدابير أكثر صرامة حيالهم (٣٠).

وتضيف وثيقة أخرى حول نفس النقطة، أى مقاومة التنصير القسري، بأن عملية تنصير الموريسكيين فى مدينة بلنسية، كانت أكثر تعقيدا من كل المدن الأندلسية، بل وأكثر مشقة من مدينة غرناطة نفسها، وبخاصة مع من تم تنصيرهم عنوة دون رغبة منهم، فقد كان لديهم اصرار عجيب على عدم ممارسة شعائر هذا الدين الجديد، وكل هذا كان تحت متابعة ورصد وترصد من محاكم التحقيق، التى تعاملت معهم دون شفقة أو رحمة، كما حكى الموريسكيون أنفسهم (٣١). وقد عمدت ألا أتطرق بإسهاب إلي وصف طرق معاقبة المرتدين عن التنصير من قبل محاكم التحقيق، فهى لها حديث أخر، يدمي القلب، علاوة على الالتزام بلب الموضوع وهو مراحل وطرق التنصير القسري لمدينة بلنسية.

وتوضح إحدى الوثائق، قيام محاكم التحقيق، بالتفريق بين أنواع المتنصرين، والعمل على تصنيفهم، وحملوهم أوصافا جديدة، مثال المارق، والمرتد والساحر، والمشعوذ، وذلك كي يسهل عليهم التعامل مع كل حالة علي حد، من حيث العقوبة الواجبة عليهم، ولكن كان الجميع يخضع للمراقبة من قبل تلك المحاكم، فقد كانت تمارس مراقبة صارمة علي كل أفعالهم وحياتهم اليومية، وكانت تقدم عنهم تقارير مفصلة حول طرق حياتهم ، ومدى استجابتهم وانصياعهم لم يطلب منهم، وترفع هذه التقارير الى الجهات المختصة لتقرير ما تريد من عقوبات بحقهم (٣٢).

وقد كان من أقسى العقوبات التى فرضت عليهم رغم بساطتها من وجهة نظر البعض، هى عدم تمكنهم من غلق أبوابهم الرئيسية عليهم، بل تركها مفتوحة لأوقات تحددها محاكم التحقيق، وبخاصة فى أوقات الأعياد والجمع والأعراس، كي يسهل مراقبتهم والتجسس علي معتقداتهم وهل مازالوا ملتزمين بطقوس الدين الجديد، أم ارتدوا إلى دينهم القديم.

أما قاصمة الظهر للموريسكيين فى مدينة بلنسية، فى عهد الملك شارلكان، فقد تمثلت فى القرار الذى صدر سنة ١٥٤١ م، والذى مثل بالنسبة لهم حبسا ورقا داخل مدينتهم، وقد صدر هذا القرار عقب تزايد الرغبة من قبل الموريسكيين الأندلسيين للهجرة خارج الأراضى الإسبانية، بعد أن اشتدت عليهم الخطوب، وأصبحوا أقرب إلى الرق منهم إلى الأحرار، حيث اثقلت كواهلهم بالضرائب، التى أصبحوا لا قبل لهم بها، علاوة على الاتهامات والشك الدائم الذى أصبح يطاردهم، ففضلوا الفرار بما تبقى لهم من هوية وعقيدة. وكانت مدينة بلنسية قد أصبحت الملاذ الأمن، والمكان المفضل لكل الموريسكيين، للخروج من الأندلس (٣٣).

حيث أنها مدينة ساحلية يسهل عليهم الابحار منها إلى أى جهة يرغبونها، عندما يشتد عليهم تضييق محاكم التحقيق، ولكن صدور هذا القرار الصادم، والذى حرم عليهم الخروج من بلنسية، أو أي من ثغور الأندلس قاطبة، إلا بموافقة ملكية، يتم دفع مبالغ طائلة نظير الحصول

عليها (٣٤)، وهو ما لا يقدر عليه غير الموسرين فقط من الموريسكيين، وهم أقلية بالمقارنة برقيقى الحال ممن لا يستطيعون الدفع وافتداء أنفسهم مقابل السماح لهم بالمغادرة.

وفى الحقبة الأخيرة من عهد الملك شارلكان، حظيت مدينة بلنسية كغيرها من المدن الإسبانية، على انفراجة بسيطة خاصة بالموريسكيين، مع البقاء على الثوابت وأهمها البقاء على المسيحية الكاثوليكية، حيث أصدر الأمبراطور قرارا فى سنة ١٥٤٣ م، طلب فيه من القائمين على محاكم التحقيق، وبناء على ما تقدم به إليه مطران مدينة طليطلة Toledo، ومحققها العام، باصدار عفو عام عن المسلمين الذين تم تنصيرهم، والعمل على ادماجهم فى المجتمع المسيحى، ورد بعض أملاكهم اليهم، والتى كان قد تم مصادرتها من قبل، والسماح لهم بتزويج أبنائهم من بنات النصارى، وأن تؤول المهور التى دفعوها إلى خزينة الدولة مقابل ما اقترفوه من ذنوب، ويستفيد من هذه الأموال الأبناء نتاج هذا الزواج (٣٥). وانتهى عهد الملك شارلكان، والوضع أكثر سوء للموريسكيين، شهدوا خلاله أكبر عملية تنصير فى تاريخهم، وذلك نظرا لطول الفترة التاريخية التى حكمها من ناحية، ولإطلاق يد محاكم التحقيق لتحقيق الهدف الأسمى، كما أطلق علية بتوحيد الدين والأرض والوطن، ليرثه ابنه فيليب الثاني، ويسدل الستار نهائيا على هذه المأساة الفريدة فى تاريخ هذه الأمة المنكوبة.

عهد الملك فيليب الثانى ,Felipe 11 (١٥٥٦ – ١٥٩٨ م).

ذكرنا سابقا أن مدينة بلنسية حظيت بامتياز خاص، دون غيرها من المدن الإسبانية، فى مسألة حمل السلاح، وذلك بعد المفاوضات التى تمت بينهم وبين الملك شارلكان، وكنوع من استرضاء أهل المدينة الغاضبين، والطامحين إلي الثورة ضد أعمال محاكم التحقيق. فلما تولى ابنه الملك فيليب الثانى، كان من أول قراراته ضد الموريسكيين بمدينة بلنسية، النكث بوعد والده شارلكان، وقام بتجريد الموريسكيين من أهل بلنسية من سلاحهم، والاذعان للتنصير الذى فرض عليهم، وقدم لهم بدوره مجموعة من الامتيازات، لا تختلف كثيرا عما قدمه والده شارلكان، ثم مالبث أن نكث بها، حيث صدر قرارا عاما من الملك فيليب الثانى سنة ١٥٦٣ م، يحرم حمل السلاح على الموريسكيين عامة، بما فيهم أهل مدينة بلنسية، مما أثار أهل مدينة بلنسية مرة أخرى، حيث كان السلاح فى تلك الفترة العصيبة، يمثل لهم أهمية كبرى، للدفاع عن أنفسهم، وبخاصة سكان المناطق البعيدة عن المدن العامرة، وكان هذا القرار مجرد مقدمة تبعته قرارات أخرى، من تحريم الملابس واللغة والعادات الإسلامية بصفة عامة (٣٦).

ومن أهم القرارات التى صدرت فى عهد الملك فيليب الثانى، تلك الوثيقة التى أوردها الأسقف المتعصب / دون باسكوال بورونات إى براتشينا، Pascual Purnanat Y

Prachina، فى كتابه المهم، Los Moriscos Espanoles Y Los Hechos de Su Expulsion، '' الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم ''، وهى وثيقة مهمة تضم حصرا للأعداد التى تم تنصيرها من مدينة بلنسية والقرى والضواحي التابعة لها، والذين أطلقوا عليهم المعترفين التائبين، الذين نجوا من المحارق التى تم تنفيذها فى الموريسكيين المارقين المرتدين على حد تعبير هذا الأسف المتعصب (٣٧).

ويثنى الأسقف / باسكوال بورونات على قرارات الملك فيليب الثاني، رغم كل المحارق التى ميزت عهده، ويقول إنه ''عاش تناقضات داخلية حادة، حيث كان يدعو للقسوة والصرامة ويحث محاكم التحقيق على تطبيق تلك القرارات بالشدة الكافية، وكان يرفض بداخله سلوك بعض النبلاء والأسياد الجدد من بنى جلدته، تجاه تعاملهم مع تابعيهم من الموريسكيين. كان يتأرجح بين اللين والقسوة، وبين ما يطمح إليه من مصلحة المملكة الإسبانية، ووحدتها الدينية والسياسية، وبين الإحساس الإنساني بالرحمة اتجاه شعب يدافع عن معتقداته من أجل البقاء. كان كذلك يخاف على شعبه من الدخول في حرب أهلية، تأتي على الأخضر واليابس، وتزهق فيها الارواح البريئة وتراق فيها أودية من الدماء. كانت رغبته شديدة في تطهير تراب المملكة الإسبانية من تعاليم القرآن، المتجذرة في مختلف أرجائها، لكنه كان يفضل الحلول الناجعة، التى تمكنه من تحقيق ذلك، لذلك كان يؤيد طرد الموريسكيين، وإخراجهم من البلاد كحل نهائي وقاطع، حقنا للدماء، بعد ما فشلت كل محاولات تنصيرهم، وجعلهم يعتنقون المسيحية الكاثوليكية كخلاص لأرواحهم '' (٣٨).

وقد تميز عهد الملك فيليب الثانى، بالتجسس الكبير على حياة الموريسكيين، ورفع التقارير الدورية ضدهم من خلال مراقبتهم، وقد كان هذا الملك هو من أرسى هذه القاعدة فى مراقبة حياة الموريسكيين مراقبة دقيقة، ومن مدينة بلنسية انتقلت تلك القاعدة إلى كل المدن الأندلسية، ولكنها لم تبرز بالصورة الواضحة إلا فى مملكة غرناطة عقب سقوطها، حيث مثلت كابوسا مزعجا لحياة الشعب الغرناطي، ومن أهم تلك التقارير الجامعة التى تم تقديمها للملك، هذا القرار المفصل، الذى يكاد يحصى على الموريسكيين فى مدينة بلنسية أنفاسهم، فهو لم يترك شاردة ولا واردة فى حياتهم دون أن يحصيها عليهم ويرفعها للملك (٣٩).

عهد الملك فيليب الثالث ,Felipe 111 وكان يلقب بالورع، El Piadoso (١٥٩٨ – ١٦٢١ م).

تولى الحكم بعد وفاة أبيه فيليب الثانى، ورغم أن أبيه مهد له الأرض وروض الموريسكيين لسنوات طويلة، الا أنه أضطر إلى أخذ القرار الصعب والأخير لطرد الموريسكيين نهائيا من

الأراضى الإسبانية Expulsion de Los Moriscos (٤٠). وهو القرار الذى كان يحلم به فيليب الثانى، فجاء ولده فيليب الثالث واتخذ خطوات تنفيذه على أرض الواقع.

وكانت مدينة بلنسية هى أول مدينة إسبانية يطبق عليها قرار الطرد أو النفي الأخير، الذي صدر في عهد الملك فيليب الثالث، والذى صدر فى ٩ إبريل سنة ١٦٠٩ م، حيث جهزت الحكومة الإسبانية العديد من السفن في شواطىء مدينة بلنسية، والتي تجمع فيها ورحل منها ما يقارب الخمسة عشر ألفا من الموريسكيين، وهذا الفوج كان معظمه من علية القوم الموسرين، والطبقة الوسطي (٤١). وهو ما أحدث خللا كبيرا فى التركيبة السكانية لمدينة بلنسية، حيث لم يبق بها سوى البسطاء ورقيقى الحال.

والحقيقة لا أريد الاستطراد كثيرا حول الأسباب التى جعلت الملك فيليب الثالث يلجأ إلى هذا القرار الحاسم بطرد الموريسكيين نهائيا، لأنها تقريبا نفس الأسباب التى اتبعها الموريسكيين مع سابقيه، من التمسك بالدين والهوية الإسلامية. ولذا فقد أوردت هذا الرأى للأسقف المتعصب / باسكوال بورنانات، والذى يلخص القضية برمتها من البداية إلى النهاية،حيث يقول :- ‘‘باءت بالفشل كل المحاولات والتدابير الملكية، وكل الخطوات التي سنتها محاكم التفتيش ولم تؤت أكلها اتجاه ذلك الجنس العجيب، الموريسكي، لأنهم أيضا كانوا يحضون بحماية ودعم الأسياد والنبلاء لهم. لكن السؤال المطروح هو: هل غلب على هؤلاء ـ يقصد الأسياد والنبلاء ـ المنفعة المادية والاستفادة من المال على مصلحة البلاد؟ كانوا يتكلمون عن الرحمة اتجاه الموريسكيين، التي لم تكن في الحقيقة إلا تبريرا لجمعهم للمال. كانوا يضربون عرض الحائط بالمصلحة الدينية وبالصالح العام، وبخسوا أنفسهم لتحقيق مكاسب رخيصة، ضيقة وخاصة ’’(٤٢). لقد حمل الأسقف / بورنانات، نبلاء بلاده مسؤلية فشل تنصير الموريسكيين (٤٣). وتجاهل التضحيات التى قدمها هؤلاء فى سبيل الحفاظ على هويتهم ودينهم، ولو فكر لحظات ووضع نفسه مكان هؤلاء التعساء، وفعل به ما يفعله معهم، ربما كان له رأي أخر.

أما تبرير الملك / فيليب الثالث نفسه فى اتخاذ هذا القرار، فقد أوردته د/ مرثيدس جارسيا أرينال Mercedes Garcia Arenal، حين نقلت على لسان الملك نفسه قوله :- "... لقد حاولت منذ سنين طويلة تنصير موريسكيّ هذه المملكة وإصداري لقرارات العفو المتتالية في شأنهم وساعدني رجال الدين في تحويلهم إلى ديانتنا المقدسة لكنهم أصروا على التمسك بدينهم ’’ (٤٤).

آثار طرد الموريسكيين على مدينة بلنسية.

أجمع العديد من المؤرخين على أن طرد الموريسكيين من إسبانيا، كان له أثار مدمرة على الاقتصاد، فقد تدهورت الأوضاع الاقتصادية بصورة كبيرة، وبخاصة فى مدينة بلنسية، والتى كان اقتصادها يعتمد فى المقام الأول على حرفة الزراعة، نظرا لخصوبة أراضيها، والتى كانت تنتج أفضل أنواع الزروع الأندلسية، وبسبب هجرة الأيدى العاملة المؤهلة والخبيرة فى استصلاح الأراضى، علاوة على أن معظم المهاجرين بعد قرار الطرد الأخير فى سنة ١٦٠٩ م، كان معظمهم من الموسرين والخاصة، مما أضر كثيرا باقتصاد المدينة.

ورغم قصور واختصار الرواية الإسلامية لهذه المأساة وآثارها على المدن الأندلسية، وبخاصة مدينة بلنسية، إلا أن الروايات المسيحية الغربية، أسهبت كثيرا فى وصف أثارها، وأمدتنا بمادة خصبة نستقي منها معظم المعلومات الخاصة بهذه الحقبة فى تاريخ إسبانيا.

يذكر المؤرخ الأمريكى د/ Henry Charles Lea، أن مدينة بلنسية كانت من أكثر المدن الإسبانية تضررا من قرار النفى الأخير، حيث أقفرت الأرض والضياع التى خلت من سكانها، حيث أضطر كبار الملاك وأصحاب الضياع ممن كانوا يعتمدون على خبرة وحرفة الموريسكيين فى إدارة أراضيهم إلى استجلاب عمال زراعة من مناطق أخرى لتعويض هذه الخسائر الفادحة التى لحقت بهم (٤٥). ويضيف بأن الملك فيليب الرابع Felipe 1V، والملقب بالملك الكوكب El Rey del Planeta، (١٦٢١ – ١٦٦٥ م)، قد اضطر إلى خفض الضرائب على مدينة بلنسية، لم لحق بها من صعوبة فى الوضع الاقتصادى فى كافة مناحى الحياة، وهو النتيجة الحتمية لتلك السياسة الجائرة التى أخلت المدينة، بل والبلاد عامة من سكانها أصحاب الخبرة، والتخطيط المدروس (٤٦).

أما المؤرخ الإسباني البلنسى / Don Modesto La Fuente Y Zamalloa، والذى كان حزينا على ما أصاب مدينته من القحط والجفاف، والتى أثرت عليها النواحى الاقتصادية المتدنية، وكان قد أطلق على مدينته أيام مجدها لقب ‘‘ حديقة إسبانيا الغناء ’’، نراه يقول :- عقب قرار الطرد الأخير، تحولت الحياة إلى قفر وجفاف، وبدأ شبح الجوع يخيم على المدينة، ورغم مجيء سكان جدد، ليحلوا محل الموريسكيين المهجرين، إلا أن الأمور ساءت، ولم يكن من السهل تعويض هؤلاء البشر، الذين استطاعوا بعبقريتهم قهر الطبيعة (٤٧). والحقيقة أنه استرسل طويلا فى عد مثالب طرد الموريسكيين، واعتبره خسارة فادحة لمدينته الأثيرة، ولإسبانيا بصفة عامة.

أما المؤرخ الإسبانى / Don Florencio Janer Y Graells، فيقول :- إن مدينة بلنسية حملت لقب، حديقة إسبانيا الغناء، وبعد طرد الموريسكيين، تحولت من بلاد العرب

السعيدة، إلى بلاد العرب الفقيرة، وأن مدينة بلنسية تحولت إلى صحراء جافة، وحل الجوع فى أركان المدينة، وتحول المرح الصاخب إلى صمت موحش، حيث هجرت الأماكن والدور، وانتشر قطاع الطرق فى أنحاء المدن المهجورة، ورغم غنائم الأقلية من بيع منازل وممتلكات المهجرين، إلا أن الغالبية العظمى أصبحوا يلتمسون العون والمساعدة من الحكومة لإطعامهم (٤٨).

أما المفكر والناقد الإسباني / Marcelino Menendez Y Pelayo، فيذكر فى كتابه الخوارج أو المهرطقين الإسبان، ويقصد بهم المسلمين الموريسكيين، وواضح من عنوان الكتاب أنه يؤيد قرار الطرد ، ورغم ذلك أشار الى الخسارة التى لحقت بمدينة بلنسية جراء ما حدث، ويقول :- لقد خسرت مملكة بلنسية برحيل هذه الأعداد الغفيرة، من هؤلاء العمال المهرة المثابرين، فقد كانوا يحدثون الخصب والنماء والرخاء أينما ساروا، لبراعتهم فى الزراعة، وقناعتهم فى تناول الطعام، عكس نصارى البلاد قليلوا الخبرة فى الزراعة، والذين تعلموا، ولكن بعد زمن معاناة (٤٩). وهكذا نرى أنه رغم الخلاف العقائدى، بل وتأييده لقرار الطرد لهؤلاء المهرطقين، كما أطلق عليهم، ولكنه لم يمنع نفسه من شهادة حق لهؤلاء المطرودين، ونعتهم بما يستحقونه من العمل الدؤوب، والقناعة، وخسارة المدينة برحيلهم.

ويضيف المؤرخ الأمريكى / Henry Charles Lea، ويقول :- رغم اندثار الإسلام والمسلمين فى إسبانيا، عقب هذه الحقبة المؤلمة، إلا أن الدراسات الحديثة اثبتت أن التأثير الموريسكي، ما زال قائما إلى اليوم، وبخاصة فى مدن بلنسية وغرناطة ومقاطعة لامنسا Provineias de La Mansha، حيث يغلب على نصارى هذه المناطق العادات والتقاليد الموريسكية، فى الملابس والطعام وغيرها من العادات، بل الأكثر من ذلك عدم معرفتهم بالطقوس والعادات المسيحية السليمة كغيرهم من نصارى إسبانيا (٥٠).

وقد تعددت الروايات حول تلك النقطة على وجه التحديد، لم أحدثه طرد وتهجير هؤلاء الموريسكيين من هزة كبيرة فى المجتمع الإسباني، وبخاصة على الصعيد الإقتصادى والذى يمثل العمود الفقرى لأى دولة قديما وحديثا، وبه تقوم دول وبه تنهار دول، ورغم ذلك وكي لا نسترسل طويلا حول تلك النقطة المهمة. نختمها برأى أحد أهم المستشرقين البريطانيين الحديثيين وهو / روجر بواسى Roger Boase (Born 3 April 1946)، الذى نقد مسألة طرد الموريسكيين بصورة عنيفة، وذكر أن إسبانيا قد دفعت ثمنا غاليا لحرمان المسلمين واليهود ولفترة طويلة من هويتهم الثقافية، إلا أنه منذ وفاة الجنرال الإسبانى "فرانكو" عام ١٩٧٥ م ،تم إرساء حرية العبادة بالتدريج. ويضيف بواسى :- أن الحاجة اليوم ماسة لكتابة تاريخ أوربى جديد، بعد أن أصبح هناك تعددا عرقيا ودينيا (واصبحت أوربا تضم حوالي ٣٠ مليون مسلم، ومليون

و نصف المليون يهودي)، كما أنه يجب إبراز انجازات المحن التى تعرض لها المسلمون واليهود فى أوربا (٥١). ورغم أنه ربط بين المسلمين واليهود فى تلك المحنة، ولكن محنة المسلمين فى الأندلس لا تتساوى مع محنة اليهود من حيث التنكيل أو العدد، ولكن لا بأس من طرح هذا الملف من جديد وفى ظل المعطيات الجديدة، والوثائق التى تملأ خزائن الأسكوريال وغيرة، وتخص تلك الفترة على وجه التحديد.

هجرة الموريسكيين فى الرواية الإسلامية.

لم تلق المرحلة الأخيرة من الهجرة الموريسكية العناية اللازمة في المصادر الإسلامية، والتى امتدت من سنة (١٦٠٩ – ١٦١٤ م)، ومن أهم المصادر الإسلامية التى أفاضت فى ذلك الموضوع، كان المقرى التلمساني (٩٩٢ –١٠٤١ م) – (١٥٨٤ – ١٦٣١ م)، في كتابه "نفح الطيب". وربما يعود السبب الأساسى لهذا الإهتمام من قبل المؤرخ المقري، أن الكثير من المهاجرين، كانوا ينتمون لبلده الجزائر (المغرب الأوسط)، حيث كان للجزائر وموانيها نصيبا كبيرا فى استقبالهم، حيث يقول المقرى :- ‘‘... فخرجت ألوف بفاس، وألوف أخرى بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس... ’’(٥٢). ورغم ما تعرض له الكثيرون منهم من سلب ونهب وسوء معاملة، لكن لم يكن لديهم خيارا سوى الفرار بدينهم مهما كانت العواقب.

الخاتمة :-

وفى نهاية البحث، وبعد تلك الجولة عن مأساة التنصير القسري الموريسكيين، بإحدى أهم مدن الأندلس، مدينة بلنسية، لا بد أن نذكر أن هذا الظلم والغبن الذى وقع على أهل المدينة، لم تمحه السنون، ولا بد من رد الإعتبار لهؤلاء المنكوبين، ولا يكون هذا الرد بالتعويضات المادية فقط، كما يطالب غيرهم، باحتلالهم أرض لا تضم ثقافة ولا تاريخ ولا تعايش خاص بهم، بل رد الاعتبار يكون بالإعتذار الصريح، والسماح لمن أراد العودة من أحفاد الموريسكيين، والتى كشفت الدراسات الحديثة، أنهم كثر، وما زالوا على عهدهم، رغم بعدهم عن دينهم وهويتهم، أصبح الكثير منهم يصحح مساره العقدي، فقد كانت بذور دينهم عميقة فى نفوسهم، ربما تذبل حينا بفعل ما يتعرضون له، وهو فوق طاقتهم البشرية، لكنها كانت تعود وتزدهر من جديد مع أول فرصة تسنح لهم، كما رأينا طوال صفحات البحث، وأن القبول بالتنصر ما هو إلا تقية للحفاظ على أرواحهم، أو لحماية ذويهم ممن يعولون، هى فقط تقية تعيش تحت طوفان لا يرحم وموجة قوانين لا تهدأ، فقد شهد القرن السادس عشر الميلادى، العاشر الهجرى، فيضانا من القوانين الموجهة ضدهم، لا

يكل ولا يمل مشروعه، وكلها تدعوا إلى خيارين لا ثالث لهما، إما التنصير أو الطرد، تحت زريعة العودة إلى القومية الواحدة، واللحمة الوطنية.

والحقيقة أن هناك من الأحفاد من يريد العودة والعيش بسلام فى أرض الأجداد، علاوة على استعادة دورهم وهويتهم كمكون أساسى لهذا المجتمع الذى طردوا منه رغما عنهم، فجميعنا يعرف هذا الهوى والحنين إلى العودة، بل لا نكون مبالغين لو ذكرنا أن العديد منهم توارث مفاتيح بيته وأملاكه، أملا فى العودة، وقد أثبتت القرارات والوثائق المكدسة فى قصر الأسكوريال، Palacio de El Escorial، والأرشيف العام بشلمنقة، Semancas، وغيره من الأماكن فى المغرب وإسبانيا، وإن كان الكثير منها يتشابه فى القضايا الخاصة بالموريسكيين، وهو ما يصعب معه مهمة الباحث فى اخراج الجديد منها، لكنها تشهد جميعها بأن هؤلاء المنكوبين انتزعوا انتزاعا من دينهم وهويتهم، ولا يوجد أى وجه للمقارنة بين سياسة التسامح الدينى التى اتبعها المسلمون الفاتحون، منذ عصر الفتوحات الإسلامية حتى ضعفهم وطردهم، واستغلال الغالب تمسكهم بدينهم وهويتهم كزريعة للتنكيل بهم، فلم يؤثر عن المسلمين قديما أوحديثا، اتباعهم لأي من سياسة التطهير العرقى.

والحقيقة أن من قاموا بهذه الأفعال الشنيعة لم يتفهموا، طبيعة المسلمين وتعلقهم بدينهم وهويتهم، وأن استقبال الموت برضا هو أهون ما يقدمه المسلم للحفاظ على دينه، ويمكن أن نضيف أن العالم شهد فى الحقبة الأخيرة ما يعرف بحقوق الإنسان، وهو ما يجب أن تطبقه المنظمات العالمية، على هؤلاء، ولا تصبح مجرد حبرا على ورق.

ورغم البوادر الإيجابية التى ذهبت إليها الحكومة الإسبانية فى الخمسة عقود الأخيرة، من رد الإعتبار والسماح بالتعددية، والسماح للمسلمين وبخاصة من الأصول الموريسكية، من التعايش ، والاندماج ثقافيا واجتماعيا، واقتصاديا، فى المجتمع الإسبانى الحديث، ولكن للأسف هى محاولات تتم على استحياء، وتحتاج إلى مزيد من الجرأة والتشجيع والتعويض من قبل السلطات الإسبانية المعنية.

الهوامش والحواشي.

(١) مدينة بلنسية : هى مدينة تقع '' فى شرق الأندلس، بينها وبين قرطبة على طريق بجانة ستة عشر يوما، وعلى الجادة ثلاثة عشر يوما، وهى مدينة سهلية، وقاعدة من قواعد الأندلس فى مستوى من الأرض عامرة القطر كثيرة التجارب، وبها أسواق وحط وإقلاع، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال، وهى على نهر جار، ينتفع به ويسقى المزارع وعليه بساتين وجنات وعمارات متصلة، والسفن تدخل نهرها، وسورها مبني بالحجر والطوابي، ولها أربعة أبواب، وهى من أمصار الأندلس الموصوفة، وحواضرها المقدمة، ولأهلها حسن زي وكرم طباع، والغالب عليهم طيب النفوس، والميل إلى الراحات، وهى فى أكثر الأمور راخية الأسعار كثيرة الفواكه والثمار، جامعة لخيرات البر والبحر، ولها أقاليم كثيرة ''. للمزيد حول مدينة بلنسية راجع :- الحميرى : (أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم الحميرى) ت ٩٠٠ هـ، الروض المعطار فى خبر الأقطار، مؤسسة ناصر الثقافية، طبع مطابع دار السراج، لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م، من ص ٩٧ – إلى ص ١٠١.

(٢) خايمى الأول، أو خايمى الفاتح : ولد فى ٢ فبراير ١٢٠٨م، وتوفى في ٢٧ يوليو ١٢٧٦م، حمل لقب الفاتح Jaime el Conquistador، لكثرة فتوحاته، وحمل أيضا ألقاب ملك أراغون Aragon، وبلنسية وميورقة Mallorca، وكونت برشلونة، وسيد مونبلييه، وقد وصلت مملكة أراجون أقصى أتساعها فى عهده، حيث ضم إليها بلنسية، ولانجدوك Languedoc، وجزر البليار Islas Baleares، وقام بعقد معاهدة مع لويس التاسع Lois 1X، ملك فرنسا، ضم بموجبها برشلونة Barcelona، إلى التاج الأراجونى، كان له دور كبير فى حروب حركة الإسترداد المسيحى La reconquista، لمعظم الأراضى الواقعة شرقا على البحر المتوسط. وقد حكم مدينة بلنسية وضمها إلى التاج الأراجونى، منذ ٢٨ سبتمبر ١٢٣٨ م، حتى ٢٧ يوليو ١٢٧٦ م، للمزيد راجع :- Chisholm (Hugh) : James 1 Of Aragon, Encyclopaedia Britannica, (11th ed), Cambridge University Press, ed 1911.

Henry John (Chaytor) : Ahistory Of Aragon and Catalonia, London 1933, Methuen, P 7.

(٣) أبو جميل زيان بن مردنيش :- هو زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد بن مردنيش الجذامى. ت (٦٣٧ – ١٢٤٠م) حمل لقب أبو جميل، هو أحد أسرة بنى مردنيش Martinez، الذين تزعموا شرق الأندلس، أخرجه ملك أراجون خايمى الأول، من مدينة بلنسية سنة ٦٣٦ هـ – ١٢٣٩ م، فقام باحتلال مدينة مرسية Murcia، ثم ما لبث أن ثار عليه أهل المدينة وقتلوه، وأرسلوا ببيعتهم إلى مؤسس الدولة الحفصية أبو زكرياء الأول الحفصي (٦٥٢ – ٦٤٧ هـ) – (١٢٢٨ – ١٢٤٩ م). للمزيد راجع :- ابن خلدون : (عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي) ت ٨٠٨ هـ، ١٤٠٦ م، تاريخ ابن خلدون المسمي بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، فى أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،

لبنان، بيروت، ١٣٩١ هـ، ١٩١٧ م، الجزء الرابع، ص ٢٠٥. ابن عذارى : (أبو عبدالله محمد بن عذارى المراكشى) كان حيا فى ٧١٢ هـ، ١٣١٢ م، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج، س كولان، وليفى بروفنسال، المكتبة الأندلسية رقم (٤)، دار الثقافة، لبنان، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠ م، الجزء الأول، ص ١٣٤، ١٧٣.

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق د/ عبدالله محمد على، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨ م، الجزء الرابع، ص ٤٢٦. الحميرى: الروض المعطار، ص ١٠٠، ١٠١. روبار برنشيفك : تاريخ إفريقيا فى العهد الحفصي، ترجمة / حمادى الساحلى، دار الغرب الإسلامى، لبنان، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٧٧.

(٥) السيد أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن يوسف بن عبدالمؤمن : هو أخر ولاة الموحدين على مدينة بلنسية قبل السقوط . للمزيد حول تركه المدينه وذهابه بأهله وولده إلى ملك أراجون، راجع :- ابن عميرة المخزومي : (أبو المطرف أحمد بن عبدالله بن الحسين بن عميرة المخزومى) عاش بين سني (٥٨٢ – ٦٥٨ هـ) – (١١٨٦ – ١٢٦٠ م)، تاريخ ميورقة، مخطوط قام بدراسته وتحقيقه د/ محمد بن معمر، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ٢٠٠٦ م، ص ٣٩، ٤٠.

(٦) موقعة أنيشة Batalla del Puig de Santa Maria، وقعت يوم الخميس ٢٠ ذى الحجة ٦٣٤ هـ، ١٤ أغسطس ١٢٣٧ م، هزم فيها المسلمون هزيمة ساحقة، وقتل فيها عدد كبير من علماء المسلمين بمدينة بلنسية، حيث بلغ عددهم حوالى سبعين عالما، وهذه الهزيمة هى التى مهدت لسرعة الإنهيار، وسقوط مدينة بلنسية. للمزيد راجع:- ابن خلدون : (عبدالرحمن بن محمد بن خلدون)، ت ٨٠٨ هـ، ١٤٠٦ م، تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، فى أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، نشر الشيخ / نصر الهويني، القاهرة، طبعة بولاق، ١٢٨٤ هـ، ١٨٧٦ م، سبعة أجزاء، الجزء السادس، ص ٢٨٣. المقرى : (أحمد بن محمد المقرى التلمساني) ت ١٠٤١ هـ، ١٦٣١ م، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وفى وصف وزيرها لسان الدين بن الخطيب، نشر وتحقيق الشيخ / محمد بن عبدالرحمن (قطة العدوي)، القاهرة، مطبعة بولاق ١٢٧٩ هـ، ١٨٨٢ م، أربعة أجزاء، الجزء الثاني، ص ٥٨٦.

Don Modesto (La Fuente) : Historia General de Espana desde Los Tiempos Primitivos hasta La Muerte de Fernando V11, Barcelona, Montaner Y Simon, 1887 – 1890, Tomo Sexto, P 84.

(٧) ابن الأبار : (أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي) ت ٦٥٨ – ١٢٦٠ م، الحلة السيراء، نشر / رينهارت دوزي، ليدن ١٨٥١ م، ص ١٩٠. ابن خلدون : نفس المصدر، ج ٤، ص ١٦٧.

(٨) وهنا لا بد من إبراز تعدد الآراء حول الأصل والمغزى التاريخى لكلمة موريسكى Morisco ،وبصفة خاصة ما جاء فى الكتابات الحديثة التى ربما تختلف عما سبق أن سقناه ، فى السنوات الماضية حيث وضعت تعريفات تختلف عما درج عليه المؤرخون من قبل وبخاصة من علماء ومؤرخى المغرب، فهناك من يعربها بمعنى "المسلمين" و هناك من يراها تعني "العرب"، لكن ما أراه صحيحا ـ على حد ما ذكره هشام زليم المغربى ـ هو ما

نحاه العلامة تقي الدين الهلالي المغربي رحمه الله في ترجمته لكتاب "مدنية المسلمين بإسبانيا" لمّا ترجم الموروس بمعنى "المغاربة"، و هذا هو الصحيح ، لأن أهل شمال المتوسط اعتادوا نعت سكان شمال إفريقيا بالبربر أو الموروس، و قد تحولت هذه الكلمة اليوم إلى وصف قدحي ينعت به جميع المسلمين بربرا كانوا أو عربا أو حتى سكان الجزر الفيليبينية التي كانت تحتلها إسبانيا، حيث أطلقت على سكان تلك البلاد من المسلمين "المورو" وللمزيد حول هذا الموضوع راجع:- هشام زليم المغربى : محضر محكمة التفتيش الإسبانية ضد الموريسكي دييغو دياث ، الإسلام فى مواجهة محاكم التفتيش، ١ ديسمبر ٢٠١٠م. ص٩ وما يليها. ويعتبر هذا التفسير للعالم المغربى المذكور من أحدث التفسيرات لهذا اللفظ التاريخى ، والذى يختلف بعض الشيىء عن التفسيرات السابقة والتى حصرت اللفظ فى بقايا المسلمين تحت الحكم النصرانى فى إسبانيا.

(٩) التميمي : (د/ عبدالجليل التميمى)، العائلة الموريسكية، النساء والأطفال، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، جمع أعمال المؤتمر وقدم له الدكتور/ عبدالجليل التميمي، زغوان، إبريل، ١٩٩٧ م، نشر ضمن أعمال المؤتمر السابع للدراسات الموريسكية، الأندلسية. ص ٧.

(١٠) Sir John Huxtable (Elliott) : Imperial Spain (1469 – 1716), London 1916, P 300.

وللمزيد حول تلك الزيادة لأعداد الموريسكيين بمدينة بلنسية، وكيف كانت أحد أسباب أخذ القرار بطردهم نهائيا، والتى أوردها المؤرخ الموريسكي الحجري أفوقاي وهى بالغة الإسبانية تعنى القانوني أو المحامى Abogado، والذى زار الأندلس وكتب عنها فى رحلته المعروفة، سنة (١٠٢٠ – ١٦١١ م)، راجع :- الحجري : (شهاب الدين أحمد بن قاسم أفوقاي)، انقطعت أخباره بتونس بعد سنة ١٠٥٠ هـ، ١٦٤٠ م، رحلة أفوقاي الأندلسي، مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب، تحقيق د/ محمد رزوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ١١٣، ١١٤.

(١١) عبدالعزيز بن موسي بن نصير : (٩٥ – ٩٧ هـ) – (٧١٤ – ٧١٦ م)، هو أول ولاة الأندلس، خلف والده موسى بن نصير، ت (٩٧ هـ ٧١٦ م)، على ولاية الأندلس، وقد شارك فى فتح الأندلس، ومن أهم فتوحاته، كورة تدمير Tudmir، فى شرق الأندلس. للمزيد راجع :- ابن القوطية : (أبو بكر محمد القرطبى) ت ٣٦٧ هـ، ٩٧٧ م، تاريخ إفتتاح الأندلس، حققه وقدم له ووضع فهارسه الأستاذ / إبراهيم الإبيارى، الناشر دار الكتب الإسلامية والمصرية، ودار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٨٩ م، ص ٣٦. المقرى : (أحمد بن محمد المقرى التلمسانى)، ت ١٠٤١ هـ، ١٦٣١ م، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وفى وصف وزيرها لسان الدين بن الخطيب، حققه ووضع فهارسه الدكتور / إحسان عباس، ٨ أجزاء، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٨ م، ص ٢٣٤.

(١٢) العذرى : (أحمد بن عمر بن أنس العذرى) المعروف بالدلائى، ت ٤٧٨ هـ، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق د / عبدالعزيز الأهوانى، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٦٥ م، ص ٤، ٥. دون ادواردو سافدرا : دراسة حول الغزو العربي لإسبانيا، طبعة البرغريسو إديتوريال، مدريد ١٨٩٢ م، الفصل الثاني، كتب الأب سان بيدرو دى القنطرة إلي

مايانس حول الأمر نفسه، رسائل قشتالية، مجلد ٥٦. وتاريخ هذه الوثيقة في إبريل ٧١٣ م، رجب ٩٤ هـ. سافدرا : نفس المرجع، ص ٢٨ – ٣٠.

(١٣) Marcelino Menendez Y (Pelayo) : Historia de Los Heterodoxex Espanoles, Tomo 111, Madrid 1963, P 99.

(١٤) Gaspar Juan (Escolano) : Decada Primera de La Historia de Valencia, Libros 1, Valencia 1610 – 1972, P 637, 638.

(١٥) Jeronimo Zurita Y (Castro) : Los Cinco Libros de La Primera Parte de Los Anales de La Corona de Aragon, Universidad Compltense de Madrid, 1562, P 136.

(١٦) للمزيد راجع :- وثائق من أرشيف تاريخ أراجون، المجلد ٢٤، ص ١٣٧. والمجلد ٤٤، ص ١٩٣.

(١٧) فرديناند وإيزابيلا : حملا معا لقب الملكين الكاثوليكيين، وقد أطلق عليهما هذا اللقب البابا إسكندر السادس Alexander PP.V1, (١٤٣١ – ١٥٠٣ م)، وهو البابا المئتين وأربع عشر للكنيسة الكاثولكية، وذلك لدورهما الكبير فى تنصير إسبانيا فيما عرف تاريخيا بحرب الإسترداد بعد سقوط مملكة غرناطة، وقد حمل هذان الملكان علي عاتقهما هذه المهمة بعد أن تزوجا سنة ١٤٦٩ م، في مدينة بلد الوليد Valladolid، وبهذا الزواج اتحدت مملكتي قشتالة وأراجون، وحكما معا حتي وفاة ايزابيلا سنة ١٥٠٤ م، ثم وفاة فرديناند سنة ١٥١٦ م. للمزيد راجع :- William Hickling (Prescott) : The History Of The Reign Of Ferdinand and Isabella The Catholic, Volume 1, Philadelphia, 1859. P 9.

(١٨) للمزيد حول بنود هذه المعاهدة، راجع :- الدكتورة مرثيدس غارثيا أرينال : الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة وتقديم / جمال عبدالرحمن، نشر المجلس الأعلي للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٩ م، ص ٩٩.

(١٩) William Hickling (Prescott) : History Of The Reign Ferdinand and Isabella The Catholic Of Spain, Southern Illinois University Press, Volume 11, London 1962, P697.

(٢٠) Niccola (Machiavelli) : The Prince, Every man s, Library, New York 1992, P177, 178.

(٢١) Luis del Marmol (Carvajal) : Historia del Rebelion Y Castigo de Los Moriscos de Granada, Libro 11, Cap V1, Madrid, 1779, Tomo 1, P 112, 113.

وقد كان أول ما قام به هذا الكردينال المتعصب، تحويل مسجد حي البيازين Albaicin، وهو أخر الأحياء العربية بمدينة غرناطة، حوله إلي كنيسة ومدرسة مهمتها الأساسية تعليم الدين الكاثوليكي للمتنصرين الجدد، وهو ماتم مقاومته بشراسة، ولم تسر الأمور بالسلاسة التي كان ينشدها سيسنيروس. للمزيد راجع : Marmol : Op, Cit, Tomo 1, P 114.

(٢٢) Archivo General de Simancas, Resolucion Real No, 1510, Escribiendo del Estado, Pagina 207, 209.

(٢٣) شارلكان : هو من أكبر وأعظم ملوك أوربا في القرن السادس عشر، له مكانة كبيرة بين ملوك أوربا، لأنه حكم إمبراطورية كبيرة مترامية الأطراف في ثلاث قارات، حتي قيل أن الشمس لا تغيب عنها، انتصر في معظم حروبه، ضد فرنسا، والأتراك العثمانيين، إعتزل الحياة في أخر حياته زاهدا وراهبا بأحد الأديرة، بعد أن وزع ملكه علي ابنه فيليب الإسباني، Felipe 11 وأخيه فرديناند، Ferdinand 1 (١٥٥٨ – ١٥٦٤ م). للمزيد راجع :- Hollis . Micheal (Tarver) : The Spanish Empier : A Historical Encyclopedia, 2 Volums, Santa Barbara, California 2016, Vol 1, P 161.

Diarmaid (Macculloch) : Reformation : Europes House Divided, 1490 – 1700, 2 September 2004, P 216.

Robert . A .(Kann) : A History Of The Habsburg Empire, 1562 – 1918, University Of Californnia Press, November 1980, First edition, P 611.

(٢٤) Joseph Antonio (Conde) : Histoire de La Domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal, depuis L invasion de ces Peules Jusqu a Leur Expulsion de Finitive. Redigee Sur L Histoire Traduite de L arabe en Espanal de Joseph Conde, Par M . Marles, Pares 1825, Tome 111, P 389.

ولم تكن عملية التنصير بالبساطة التى قد يتخيلها البعض، فلم يكن يترك للمتنصر فرصة أو حرية لممارسة شعائر دينه الجديد بعد استيعاب وتقبل منه، وتلك أبسط الأمور، بل إن المسألة كانت أكثر تعقيدا وجدية من الطرف الأخر، من حيث الوصايا على الضمائر، وهو ما لم يعرفه الإسلام مطلقا، الذى هو علاقة بين العبد وربه دون توجيه أو وساطة من أحد. يبرز ذلك من خلال هذه النصوص التى نقلت عن تعامل الملك شارلكان مع أهل مدينة بلنسية ي تلك الوثيقة التى اعترف لهم فيها بحقوق المتنصرين الجدد، بعدما اعترفوا طواعية ولو من الظاهر بقبول الدين الجديد، واعترف لهم بدوره بالمساواة مع المسيحيين القدامى من بنى جلدتهم ـ أي من الموريسكيين الذين تم تنصيرهم من قبل سواء قسرا أو طواعية، وطلب من المسيحيين الجدد لكي يتثبت من أمرهم، أن يخضعوا لثلاث مراحل تنصيرية، لمدة شهر، كل عشرة أيام يتم إدخالهم فى مرحلة جديدة من التنصير، ومن لم يلتزم بهذه القوانين يتم الاستيلاء على كل ممتلكاته ويحكم عليه بالإعدام. للمزيد راجع :- Marcos de GuadaLajara Y (Javier) : La Expulsion Correcta Y El Traslado Justo de Los Moriscos, Parte 1, Pamplona 1613, P 164.

(٢٥) Don Juan Antonio (Liorenre) : Historia Critica de La Inquisicion de Espana, Madrid 1817, P 99.

(٢٦) Henry Charles (Lea) : The Moriscos Of Spain, Their Conversion and Expulsion, London 1901, 91, 92.

(٢٧) Longas Bartibas (Pedro) : Vida Religiosa de Los Moriscos, Madrid 1915, P XL11.

(٢٨) Longas Pedro : Op, Cit, P XL11.

(٢٩) Charles Lea : Op, Cit, P 214, 215.

(٣٠) Documento Conservado en La Biblioteca Universitaria de Valencia, C1, P87.

(٣١) Archivo Central, Recuperacion de Valencia, No 299, 204.

(٣٢) Arghivo Generales de Simancas, Libro del Estado, No 329.

(٣٣) أنظر نهاية البحث، صور الموانئ البلنسية، وهجرة الموريسكيين منها.

(٣٤) Charles Lea : Op, Cit, P 187, 189.

(٣٥) Archivo General de Simancas, P.R.Leg 28, Fol, 49.

(٣٦) Luis del Marmol (Carvajal) : Historia del Rebelion Y Castigo de Los Moriscos de Granada, Libro 11, Cap V1. Longas Bartibas (Pedro) : Vida Religiosa de Los Moriscos, P XLV, XLV1.

(٣٧) للمزيد حول هذه الوثيقة، وأعداد من تم تنصيرهم من بلنسية ومحيطها، راجع:- دون باسكوال بورونات إي براتشينا : الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم، نشر / مركز العامودى للترجمة ونقل التراث المخطوط، ترجمة د/ كنزة الغالي، إشراف د/ محمد عبدالرحمن البشير، طبع دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، الكتاب الأول من الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م، ص ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، هامش (٢).

(٣٨) باسكوال بورونات : نفس المرجع، الجزء الأول، ص ١٩٣.

(٣٩) راجع هذه القرارت فى ملاحق البحث.

(٤٠) للمزيد راجع :- Fernand (Braudel) : Civilization and Capitalism, 15 th - 18 th, Century, Vol 1, University Of Calfornia Press, 1992, P 515.

(٤١) Charles Lea : History Of Inquisition, Volum 111, P 397, 398.

(٤٢) باسكوال بورونات : نفس المرجع، الجزء الأول، ص ١٤١.

(٤٣) راجع وثيقة حماية النبلاء للموريسكيين. Archivo General de Simancas, No, 72.

(٤٤) Garcia Arenal (Mercedes) : Los Moriscos Expulsion Y Diaspora, Madrid 1975, P 251, 254.

(٤٥) Charles Lea : The Moriscos, P 384.

(٤٦) Charles Lea : Op, Cit, P 387.

(٤٧) Don Modesto La Fuente Y (Zamalloa) : Historia General de Eapana, Madrid 1862, Tomo V111, P 213.

(٤٨) Don Florencio Janer Y (Graells) : Condicion Social de Los Moriscos de Espana, Madrid 1875, P100. 101.

(٤٩) Marcelino Menendez Y (Pelayo) : Historia de Los Heterodoxex Espanoles, Tomo

111, P 339 – 343.

(٥٠) للمزيد راجع :- Henry Charles Lea : Op, Cit, P 391, 392.

(٥١) Roger (Boase) : The Muslim Expulion From Spain, History Today Magazine, London 4 April 2002, P 7. وللمزيد راجع مقالته التى بعنوان :- نظرة على النموذج الإسبانى للتطهير العرقى. Una Mirada Al Modelo Espanol de Limpieza Etnica.

(٥٢) للمزيد حول هذا الموضوع، وما تعرض له الموريسكيون فى طريقهم، وأثناء تواجدهم فى بلاد المغرب، راجع:- المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د/ إحسان عباس، ج٤، ص ٥٢٨. محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام في الأندلس، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١ م، الجزء السابع، ص ٤٠٢.

تقرير التجسس على حياة الموريسكيين بمدينة بلنسية، والذى رفعته محاكم التحقيق للملك فيليب الثانى.

Archivo General Simancas, No 46, Documento Sin Fecha, en Los Papeles 9651, Documentos 51, Dantero del Cuerpo diplomatic.

وقد وصل إلى الملك تقرير دقيق ومفصل حول العادات والممارسات التي كان يقوم بها الموريسكيون في أراجون Aragon، وقطلونية Cataluna، وبلنسية Valencia، على وجه التحديد، وهذا نص التقرير: '' أثبت شهود العيان بأن المتنصرين الجدد، مازالوا يمارسون طقوسهم وعاداتهم المحمدية في مملكة بلنسية. وأطلعنا وأمدنا من نثق بتقريراهم، بحزنهم وتأثرهم بقيام هؤلاء الموريسكيين بتلك الممارسات، وهؤلاء الأشخاص غيورون علي دينهم، وأوصيناهم بتعقب هؤلاء الموريسكيين، ولا يختفوا عن أنظارهم طيلة الوقت.

وقد رفع إلينا مسؤولي الأديرة ومعاونوهم والقضاة، بأن الموريسكيين مازالوا يختتون أطفالهم، وحتي المتنصرين الجدد مازالوا يختتون أطفالهم، ويمارسون عادة الوضوء، ويسمون أولادهم بأسماء موريسكية. وأخبرنا أيضا بعض شهود العيان، بأنهم مازالوا يحيون شعائرهم الدينية، ويحتفلون بأعيادهم الإسلامية، وعاداتهم المحمدية.

وأمدنا الشهود بأن الموريسكيين، مازالوا يتزوجون بطريقتهم الإسلامية، ولا يحضرون إلى الكنيسة، ولا يمارسون القداس، وإذا حضروا يلوون رؤوسهم إلى الخلف، أو ينظرون إلى الأرض، ولا يرفعون رؤوسهم تجاه الرب، وأمدنا شهود بعدة أماكن أخرى، بأن الموريسكيين يصومون شهر رمضان، من الفجر إلى غروب الشمس، ولا يعظمون أعيادنا، ويقومون بأعمالهم كاملة أيام أعيادنا وعطلاتنا، ويمارسون صلواتهم المحمدية خفية فى العديد من القرى، خوفا من العقاب.

وأن الموريسكيين يعاملون من تنصروا منهم، وصح تنصرهم ويعيشون معهم معاملة سيئة، ويجبرونهم على المشاركة فى الأعياد والمناسبات والعادات الإسلامية، كما حدث فى وادى آبو.

بل وصل الأمر أنهم يبيعون من لم يقم يختن أولاده، وأبلغنا مخبرونا أنهم يذبحون ذبائحهم من الماشية والطيور بمجزر مدينة بلنسية والأماكن الأخري، وهم مستقبلون القبلة، ويدفنون موتاهم علي الطريقة الإسلامية، وينهرون الراهب الذي يلقن موتاهم وقت الإحتضار، ويرفضون الدفن على الطريقة المسيحية. وهو ما يؤكد أن هؤلاء الملعونين، مازالوا على دينهم وعقيدتهم وعاداتهم، وأنهم رفضوا تخليص أنفسهم من العذاب والنار بإتباعهم الدين الجديد، ويرفضون تلقين الراهب أو القسيس لموتاهم لحظة الاحتضار.

وأبلغنا أيضا، أنهم يعملون العقيقة على الطريقة الإسلامية، وعندما يحملون أولادهم إلى الكنيسة لتعميدهم، يغسلونهم بمجرد العودة إلى منازلهم، لإزالة ما علق بهم من ماء التعميد، ويسمونهم بأسماء موريسكية، ولذلك فقد أخبرنا مخبرونا بأن موريسكي مملكة بلنسية، يتمسكون بإسلامهم أكثر مما كان عليه محمد ـ(صلى الله عليه وسلم) ـ واتباعه، بل يسبون ويسخرون ويهزأون من ديننا وإلهنا، والسيدة العذراء المقدسة ـ وهو ما نشكك فيه، فليس هناك مسلم واحد يمكن أن يتطاول علي السيدة مريم، وهو محض إفتراء ـ ودائما ما يبحث الموريسكيون عن طريق للعيش مع المسيحيين، ولكن كهولهم العجائز، يحثونهم على عدم فعل ذلك، ولا يحضرون قداس الأحد بالكنيسة، إنهم سيؤون، حيث يمنعون الشباب والأطفال من حضور القداس، وترك دين محمد ـ (صلى الله عليه وسلم) ـ .

وقد وصلنا أيضا أن الأسياد والنبلاء يوفرون الحماية للموريسكيين ضد رجال الدين، بل إن القضاة والمعلمون احتفظوا بهم لخدمتهم، ولم يسمحوا لهم بالإنتقال لأسياد غيرهم، رافضين تنصيرهم، ويسمحون لهم بممارسة شعائرهم، والكثير من النبلاء والأسياد الذين يعمل الموريسكيون فى خدمتهم، يخافون من تهجيرهم، لحاجتهم إليهم فى أعمالهم. ويسكن جل هؤلاء الموريسكيين فى مناطق جبلية وعرة، تمكنهم من الإبتعاد ورفض تعلم اللغة والدين المسيحي، ولا يجاورون المسيحيين، خوفا من الوشي بهم وترحيلهم إلي الجزائر، علاوة على خوف رجال الدين والقضاة والمعلمين من الإقتراب من تلك الأماكن الخطرة التى يقطنون بها.

وفى النهاية نري أنه من المناسب أن يرسل صاحب الجلالة الملك إلى هؤلاء النبلاء والأسياد الجبناء يأمرهم، بأن يمنعونهم من ممارسة طقوسهم وعاداتهم، أو الإحتفال بأعيادهم ومناسباتهم الإسلامية، لأن هؤلاء الموريسكيين يسيؤن للدين المسيحي واللحمة الوطنية، ويعملون على تفتيت البلاد واستقرارها.

لوحة تمثل انتصار الملك خايمي الأول ملك أراجون.

جانب من أسوار مدينة بلنسية الإسلامية.

لوحة لمحاكم التفتيش.

إقلاع الموريسكيون من ميناء مدينة بلنسية.

نزول الموريسكيون فى ميناء وهران ببلاد المغرب.